الخطاب السلفي

د. تواتي خالد
معهد اللغات والآداب.
المركز الجامعي تيسمسيلت

الملخص:

نحاول أن نقدم في هذه المداخلة تحليلاً وسبراً لمرتكزات التفكير والخطاب السلفي، ونستبق هنا ونبين بأن المقصود بالخطاب السلفي ذلك الخطاب الذي يقدم النقل على العقل بطريقة كلية ومبدئية، ومن هنا فإن من النقاط الرئيسية في المداخلة هو مناقشة مفهوم النقل وبالخصوص مفهوم النص ومرجعيته وحجيته بالنسبة لهذا الخطاب، ومن هنا فإن للخطاب السلفي جذوراً تضرب في أعماق القرون الأولى من تاريخ الفكر الإسلامي وتمتد إلى فترتنا المعاصرة،كما له تشكلات وتلونات كثيرة ومتباينة في أحيان كثيرة عبر مسيرة هذا الفكر وبالخصوص لدى جماعات تتبنى هذا الخطاب في عصرنا.

ومن النقاط التي نعرض لها في هذه المداخلة أن نبين بعض استراتيجيات هذا الخطاب وآلياته في الإقناع بأنه يتبنى الحقيقة ويتملكها، وكذا استراتيجياته في سلب الحقيقة من الآخر، وبالتالي محاولة إقصائه.

نؤثر في بداية هذه المداخلة أن نشيرإلى مصطلح السلفية ومفهومها كما وضعها المفكر **روجيه غارودي** في كتابه أصول **الأصوليات والتعصبات السلفية**، حيث يقول بأن "التعصب السلفي يتمثل في تعريف عقيدة دينية أو سياسية أو غير ذلك في الشكل والإطار الثقافي والذاتي الذي كان لها في فترة

زمنية سابقة من تاريخها، وربطها بهذه الفترة الزمنية، أي هو الاعتقاد بحقيقة مطلقة ثم فرضها."(1)

وقد أشار روجيه غارودي في بداية الكتاب إلى الإعلام وكيف كرس دال الأصولية والسلفية ليكون مدلولاً يخص التيارات الإسلامية فقط، في الوقت الذي لم يفعل ذلك مع تيارات دينية وإيديولوجية أخرى ممعنة في التعصب والكراهية وعدم التسامح، وهو يحاول أن يسحب المصطلح أيضاً على التكنوقراطيين الذين يزعمون معرفة كل الإجابات، وذلك باسم مفهوم وضعي بال للعلم. فهو بهذا الوضع يصم بالأصولية والسلفية كل من يحمل فكراً دوغمائياً يعتقد أن ما يراه هو الحقيقة المترسخة منذ زمن بعيد، وخلافها ما يراه الآخرون.

ومصطلح السلفية من المصطلحات التي يحيط بمضمونها الغموض، أو عدم التحديد في عدد من الدوائر الفكرية والسياسية في واقعنا العربي والإسلامي المعاصر.

وإذا نحن ذهبنا نلتمس معنى هذا المصلح في كتاب العرب والمسلمين الأول ـ القرآن الكريم ـ فإننا نجد أن السلف يعني الماضي، وما سبق من الحياة الحاضرة التي يحياها الإنسان، يقول الله تعالى:

(فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة 275)، ويقول: **(وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)**(النساء 22)، **(وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)**(النساء 22)، **(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ)**(الأنفال 38)، **(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ**

سَلَفَ)(الأنفال 39)، (**عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ**)(المائدة 95)، (**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ**) (يونس 30)، (**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)(الحاقة 24)، (**فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ**)(الزخرف 56).

فالسلف هنا هو الماضي وما سبق وما تقدم على الحياة الحاضرة للإنسان.

ونفس هذا المعنى يدل عليه هذا المصطلح في الحديث النبوي الشريف، ففي مسند أحمد بن حنبل، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه (**لما ماتت زينب ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال رسول الله: الحقي بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون....**)، وفيه أيضاً عن فاطمة الزهراء، رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لها في مرض موته: (**... ولا أراه إلا قد حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك...**).

كما نجد السلف مستعملاً في الحديث النبوي بالمعنى الشائع في دوائر المال والتجارة، أي إقراض المال، فالسائب بن أبي السائب يروي (أنه كان يشارك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام في التجارة، فلما كان يوم الفتح جاءه، فقال النبي: مرحباً بأخي وشريكي، كان لا يداري ولا يماري، يا سائب، قد كنت تعمل أعمالاً في الجاهلية لا تقبل منك، وهي اليوم تقبل منك، وكان ذا سلف وصلة.) رواه الإمام أحمد في مسنده. أي أنه كان يقرض المال ويصل الأرحام.

وفي معاجم العربية لا يختلف مضمون هذا المصطلح عن ذلك الذي وجدناه في القرآن والحديث، ففي لسان العرب، السالف المتقدم، وفي

المعجم الوسيط: السلف كل من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك في السن أو الفضل، وكل عمل صالح قدمته... والسلفي من يرجع في الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة ويهدر ما سواها.

ونحو ذلك أيضاً نجد مضمون هذا المصطلح في **كشاف اصطلاحات الفنون** للتهانوي: فكل من تقدمك من آبائك وقرابتك فهو سلف لك.. والسلف في الشرع اسم لكل من يقلد، بالبناء للمجهول، مذهبه قي الدين ويتبع، بالبناء للمجهول، أثره.

إذاً فالقرآن والحديث والمعاجم في تراثنا وحضارتنا تجمع على أن **السلف** هو الماضي والمتقدم، وعلى أن السلفيين هم الذين يحتذون حذو هذا الماضي والمتقدم والسالف.

ولكن هذا التحديد الجلي لا يستطيع وحده أن يرفع الغموض عن مضمون مصطلح السلفية، لأن الماضي المحتذى، يبدأ من الكتاب والسنة، إلى المأثورات المروية عن الصحابة، ومذهب تابعيهم وتابعي تابعيهم، في الفهم والتأويل، والمشكل الذي ينطرح هو تعدد تلك النصوص التي تعود إليهم، وتعدد التفسيرات والتخريجات.

إذن فالضرورة والأهمية لإلقاء الضوء على هذا المصطلح في تراثنا الفكري والحضاري لن تغني عن مواصلة البحث لكشف الإبهام الذي يحيط بمضمون السلفية في واقعنا الفكري الراهن، لأن هذا الإبهام حقيقة موضوعية، مصدرها تعدد الرؤية للمواريث السالفة، التي يستلهمها ويحتذيها السلفيون.

فذلكة تارخية حول الحركة السلفية

ولعل في تتبع الحركة السلفية، نشأة ومساراً، عبر حضارتنا العربية الإسلامية، وإن في الخطوط العريضة البارزة لهذه النشأة ولهذا المسار، لعل في ذلك السبيل الأمثل لتحديد معالم هذه الحركة، ومن ثم تياراتها، وخاصة في عصرنا، الأمر الذي يجلو لنا كيفية تفكيرها، ومرتكزات خطابها واسترتيجية هذا الخطاب، ويضع يدنا على ما هو متقدم من قضاياها ومقولاها.

يشير الاصطلاح التاريخي الشائع للسلفية إلى اتجاه يدعو إلى الاقتداء بالسلف الصالح، واتخاذهم نموذجاً للحاضر، والسلف الصالح، وفقاً للأدبيات السلفية، هم أهل القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الأمة الإسلامية، وأصل هذه الدعوة يقع في الحديث النبوي الشريف : (**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمنيه شهادته.**)(2)[أخرجه الشيخان]

إن الهوية الأكثر وضوحاً وتواصلاً لدى السلفيين، بين التاريخ والواقع، نجدها في إصرارهم الدائم على أنهم امتداد لأهل الحديث، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، إذ يصفهم الاتجاه السلفي العام بالفرقة الناجية، أو الطائفة المنصورة، وفي سياق اختلافه مع الفرق الإسلامية الأخرى، يضع خارطة بالأسماء التي تشكل هويته في مقابلها، وبصورة خاصة في الرد على أهل العقل أو أهل الرأي، ويتمحور الاختلاف حول المرجعية صاحبة الشرعية في تأويل النص القرآني والحديثي بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

أصحاب الحديث رأوا أن السلف الصالح من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم الأولى والأكثر موثوقية في تأويل النص وإضاءته واستنباط

الأحكام منه، وعلى المسلمين الخلف الرجوع إليهم كأصل ومصدر في الفهم والسلوك والاقتداء، وهم يرون أن تيار العقل والرأي المتأثر بالروح الإغريقية، يمكن أن يضرب الأسس والأصول المنهجية التي يقوم عليها الإسلام نفسه، وأن جل ما جاء به أهل الكلام والرأي والمناطقة والفلاسفة في إعادة قراءة الدين وتفسيره، والتوفيق بينه وبين التراث العالمي الآخر، والإغريقي خاصة، ليس إلا محدثات من خارج الإسلام، وبدعاً لابد من الوقوف في وجهها والتصدي لها في سبيل الحفاظ على الإسلام الصحيح في مواجهة الأمور الدخيلة.(2)

تطورت السلفية في مواجهة تيار الرأي والاعتزال خلال الحقبة التأسيسية مع الإمام أحمد بن حنبل (241هـ) في القرن الثالث الهجري، وتعتبر **محنة خلق القرآن**في زمن الخليفة المأمون لحظة تاريخية حاسمة في بلورة النزعة السلفية، في مواجهة النزعة العقلية التي تقوم على مبدأ التأويل بدلاً من التسليم والالتزام بظاهر التنزيل، حينها رفض الإمام أحمد بن حنبل القول بخلق القرآن، كما هو مذهب المعتزلة، وتعرض للتعذيب والاعتقال هو وأتباعه، لكنه ثبت على قوله، ما أكسبه مكانة متميزة لدى أهل الحديث سابقاً والسلفيين لاحقاً.(3)

وسنشهد في القرن السابع الهجري مع نهاية الخلافة العباسية، وعقب سقوط بغداد على يد التتار عام (656 هـ)، ظهور نزعة سلفية ثانية أكثر نضجاً ووضوحاً على يد أحمد بن تيمية ومدرسته (661ـ728هـ)، إذ حمل على أهل البدع، حسب رأيه، من الجهمية والقدرية والباطنية والصوفية والفلاسفة مسؤولية السقوط والتدهور العام الذي منيت به الدولة الإسلامية حينها، وكرس جزءاً كبيراً من سجالاته الفكرية والمعرفية في الرد على الفرق

الإسلامية الأخرى، وفي إظهار العقيدة السلفية وبنائها في الفقه والفكر والسياسة.

تمثل حقبة ابن تيمية تطوراً مهماً، بتشكل الإطار العقائدي والمعرفي للسلفية، إذ طفحت تلك المرحلة بالصراعات المذهبية، ما بين المدارس المختلفة سواء الإسلامية الكبرى، (الشيعة، الخوارج، المعتزلة، السنة)، أو داخل البيت السني نفسه، (أهل الحديث والأشاعرة والماتريدية)، فجند ابن تيمية قلمه لتوضيح منهج أهل السنة، في وجه التيارات الإسلامية الأخرى، ومن هنا اكتسب أهمية استثنائية داخل المدرسة السلفية.(4)

وأصبحت كتب ابن تيمية وفتاويه ومدرسته الفكرية التي حمل مشعلها تلاميذه كابن القيم الجوزية وابن كثير والحافظ الذهبي، بمنزلة بوصلة فكرية للتيار السلفي سابقاً ولاحقاً، وإذ تزخر مكتبة ابن تيمية بكتب ومجلدات كاملة في الرد على الفرق الإسلامية الأخرى، سواء من خارج السنة، مثل الشيعة والقدرية، كما هي الحال في كتاب **منهاج السنة**، أو حتى توضيح العقيدة السلفية ضمن الدائرة السنية في كتابه **العقيدة الواسطية**، وغيرها من كتب تصب في الاتجاه نفسه.

وقد بلغت السلفية التاريخية مع ابن تيمية أوج نضوجها واكتمالها، وتبلور المنهج السلفي وحددت معالم الطريق للسلفيين كافة، الذين جاؤوا من بعده وانتسبوا للسلفية، وتمثلت السلفية التاريخية عبر قرون عديدة في طائفة واسعة من العلماء. (5)

برزت **السلفية الوهابية** في العصر الحديث، وقد خرجت من رحم **السلفية التاريخية**، في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي، وامتدت حتى أوائل

القرن التاسع عشر على يد محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، فدعا إلى التوحيد ورفض فكرة الحلول والاتحاد في العقيدة، وأكد مسؤولية الإنسان، ومنع التوسل بغير الله والدعوة لفتح باب الاجتهاد، ورفض التبرك بقبور الأولياء والصالحين والأنبياء، وأحيا تراث ابن تيمية في التوحيد والعقائد، ودخل في صدام شديد مع الفرق الإسلامية الأخرى، وتحديداً الصوفية في شبه الجزيرة العربية.

يعد كتيب **التوحيد** لمحمد بن عبد الوهاب، بمنزلة مرجع أساسي لدى أغلب السلفيين، إذ يوضح فيه أصول العقيدة السلفية في مواجهة العقائد والفرق الإسلامية الأخرى، التي تجيز أعمالاً وأقوالاً يراها ابن عبد الوهاب مناقضة للتوحيد، وللكتيب شروح عديدة تدرس في حلقات السلفيين وجامعاتهم.

أصبحت السلفية مع الحركة الوهابية ذات دلالة اصطلاحية على اتجاه معين وآراء مخصوصة في الساحة الإسلامية الحديثة، وتعتبر السلفية الوهابية من الناحية الدينية دعوة إصلاحية، "تسعى إلى الحفاظ على الهوية عبر التمسك بظاهر النص، وتقوم على فهم شبه لفظي له في جوانبه العقدية والرمزية والشعائرية."(6)

ومن حيث الوقائع التاريخية فقد خاضت الدعوة الوهابية حروباً طاحنة مع خصومها في منطقة الجزيرة العربية، كما أنها تعاملت معهم كأنهم كفار أو مرتدين، وأعملت فيهم كل أنواع التنكيل والقتل والسبي، والناظر في كتاب **تاريخ نجد** لـ**غنام غنام** يجد مسميات من قبيل غزوة كذا وغزوة كذا.

وسياسياً جرى تقاسم المجال العام بين آل سعود وآل الشيخ منذ تأسيسها، وذلك بتولي آل الشيخ الجانب الديني، وآل سعود الجانب

السياسي، واستند موقف السلفية الوهابية من السلطة السياسية إلى موقف السلفية التاريخية العام الداعي إلى وجوب طاعة الحكام.

تأثير التزاوج بين السلفية الوهابية والحكم السعودي سيظهر لاحقاً بصورة أكثر وضوحاً في سبعينيات وثمانينات القرن العشرين، مع الفورة النفطية، والتوظيف المتبادل من الطرفين، فآل سعود وظفوا السلفيين لخدمة أهداف الدولة وتحالفاتها، والسلفيون جعلوا من هذه العلاقة محدداً للمجال العام داخل الدولة لفرض رؤيتهم الدينية على المجتمع والأفراد.

هذه العلاقة لم تقف عند حدود الساحة الداخلية، بل فاضت إلى السياسة الخارجية، إذ ساهمت السعودية في نشر الفكر السلفي في أنحاء متعددة من العالم، كما ساعدت الثورة النفطية في توفير دعم مالي كبير للأنشطة والمؤلفات والمؤسسات السلفية التي توزعت في دول العالم العربي والإسلامي، وحتى في الدول الغربية لدى الأقليات المسلمة هناك.

النسخة الإصلاحية للسلفية:

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تبلور ما يسمى بالسلفية الإصلاحية أو العقلانية التنويرية، وعلى الرغم من أنها تأثرت بالسلفية الوهابية والتاريخية في زوايا معينة، وتحديداً في العودة إلى المصادر الإسلامية الرئيسية وكيفية استلهامها، وهي القرآن والسنة، ورفع البدع الدينية المتشرة، ومواجهة الإغراق الصوفي في الابتعاد عن الواقع وتحدياته، إلا أن النسخة الإصلاحية ركزت على نبذ التقليد وفتح باب الاجتهاد، ورفض التعصب المذهبي.

تزامن ظهور الحركة الإصلاحية بتفكك الخلافة العثمانية وضعفها، والدخول في مرحلة الاحتكاك بالغرب في المرحلة الاستعمارية التي اجتاحت

العالمين العربي والإسلامي، ما رسخ الطابع العقلاني للسلفية الإصلاحية، فأصبحت إشكالية التقدم والتأخر وقضية الإصلاح الديني الشغل الشاغل لرواد المدرسة الإصلاحية، فزاوجوا بين نزوعهم العقلي الواضح المتأثر بالعلوم العقلية والمعارف الغربية الحديثة، وبين أسس السلفية الوهابية، من التوحيد الخالص ورفع البدع والتقليد، ودعوا إلى تحرير النص الديني من التعصب المذهبي الذي كان منتشراً في المدارس الإسلامية الحديثة، التي كانت تصر على الالتزام بمذهب معين في الفقه والفتوى والتعليم.

على الرغم من الاختلاف حول نسبة كل من جمال الدين الأفغاني (1838 ـ1997)، ومحمد عبده (1849 ـ 1905) إلى مصطلح السلفية الإصلاحية، نظراً إلى اختلاف طرحهما للعقيدة الدينية، عن السلفيين عموماً، إلا أن تلميذهما محمد رشيد رضا (1865 ـ 1935) كان أقرب من حيث المنهج العقائدي للسلفية التاريخية، في بداية حياته، وانحاز للسلفية الوهابية في مرحلة ثانية.

ويطغى على دور السلفية الإصلاحية الاستجابة للتحدي الغربي الحديث للعالم الإسلامي، إذ كانت تسعى إلى إصلاح الواقع الإسلامي المتخلف، والعناية بمشكلة النهضة والتقدم وتحقيقهما، أكثر من اشتغالها بمشكلة الهوية الإسلامية التي تهددها الحداثة الغربية الحديثة.(7)

وفي مرحلة لاحقة ظهر ما اصطلح على تسميته بالسلفية الوطنية في المغرب العربي، وتعبر عن تلك الحركات الدينية التي كان محور حركتها مقاومة الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين، والتصدي له، وذلك من منطلق التزامها بالجهاد الإسلامي ومشروعيته لصد العدوان والاحتلال، والسعي إلى إقامة دولة إسلامية وطنية، عقب أفول الاستعمار وتحقيق الاستقلال.(8) ومن أبرز رموزها عبد الحميد بن باديس في الجزائر، وأبو شعيب الدكالي في المغرب.

الدوغمائية في الفكر السلفي:

يعتبر المنهج السلفي الإسلامي، والذي يضم تحته توجهات متعددة ومتباينة من المغرب العربي غرباً وحتى الفيلبين شرقاً، من أكثر التوجهات الفكرية حملاً للألقاب من جانب متتسبيها، فليس مستغرباً أبداً ان نقرأ في كتابات السلفيين، بغض النظر عن مدى تطرفهم من عدمه، وخصوصاً الجدد منهم أوصافاً لطائفتهم من على شاكلة " **أهل الحديث** ، **وأهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة والفرقة الناجية**"، أو أنه لا يصلح للعباد سوى هذا المنهج، وكيف ذلك وأهله من الفرقة الناجية"، وهم "أهل الأثر وأهل الحق وأهل الحديث" و" أن هذا المنهج هو سبيل السلف الصالح"، وأنهم "أصحاب الطريق السوي والمنهج الصحيح"، وأن "فهمهم للإسلام هو فهم سلف الأمة الهداة المهتدين"(10) ، وخلاصة هذه الأوصاف وأشباهها هو ادعاء امتلاك الحقيقة بصورتها الإسلامية وبشكلها النهائي والمطلق في وجه الخصوم والمخالفين، وكيف لا يكون امتلاكهم للحقيقة بشكلها النهائي مفروغاً منه عندهم، وقد قرر ابن تيمية في مجموع الفتاوى: "إن مذهب السلف لا يكون إلا حقاً، فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الذي هو على الحق باطناً وظاهراً."(11) ، هذا الإيمان المطلق بذلك الادعاء، يستتبع بالضرورة إسقاط كل النصوص المقدسة التي أتت في وصف الإسلام وأهله على السلفيين بالتحديد دون غيرهم ليستنتجوا منها ألقاباً إضافية لهم، فهم أيضاً "الغرباء، من وجهة نظرهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد سماهم بذلك، وعناهم هم بالتحديد عندما قال في الحديث الشريف: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء.)"(12)

ويسترسل ابن تيمية في وصف أهل الحديث أو السلفيين، تحت فصل يعقده في مجموع فتاويه تحت مسمى كونهم **أعلم ممن بعدهم وأحكم وأن مخالفهم أحق بالجهل والحشو**، فيقول في وصفهم: " فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدهم كلاماً، وأصلحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم نظراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً."(13)

ثم يأتي تقرير امتلاك الحقيقة بشكل لا لبس فيه ولا شك، يقول عنهم: "وهذا يعلم تارة بموارد النزاع بينهم وبين غيرهم، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلى غيرهم، أو بشهادة مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض، وتارة بأن كل طائفة تعتصم بهم فيما خالفت فيه الأخرى، وتشهد بالضلال على كل من خالفها، أعظم مما تشهد به عليهم...ثم لأهل الحديث من المزية أن ما يقولونه من الكلام الذي لا يفهمه بعضهم هو كلام في نفسه حق، وقد آمنوا بذلك."(14)

فعند ابن تيمية أن كلام السلفيين هو حق بغض النظر إن فهمه بعضهم أم لا، وبغض النظر تماماً عن إمكانية فهمه عند غيرهم من باب أولى، فهذا الكلام يتعالى بالضرورة في أذهانهم، على انتقاد المنتقدين أو تفنيدهم له أو استفهامهم عن معناه إن لم يفهموه، أو حتى حقيقة أنه يستعصي على الفهم أو المنطق بعد محاولات الشرح والتفسير والتبرير له، لأنه وببساطة، في نفسه حق ويجب الإيمان بذلك.

ولا مجال للاستغرب أو الدهشة هنا من هذا الرأي لابن تيمية، إذا عرفنا من هو المؤسس الحقيقي للدعوة السلفية من وجهة نظر السلفيين، فعندما سئل الشيخ الألباني عن حقيقة ما نسب إليه قوله، إن مؤسس الدعوة السلفية هو الله، أجاب الألباني، "نعم قلت ذلك، وهذه ليست صفة، فالتحدث عن الله عز وجل بلغتنا للتعبير عن حقيقة واقعية."(15)

وكأن قضية التسميات وتعديد المزايا والصفات تأخذ منحاً خطيراً في جدلية العلاقة بين المنهج السلفي، وبين كل من لا ينتمي لهذا المنهج أو الفكر، إذ أن المنهج السلفي تحول في أذهان منتسبيه إلى انتساب إلى العصمة، وليست أي عصمة ولكنها عصمة على وجه العموم.

وادعاء امتلاك الحقيقة النهائية المطلقة بشكلها المعصوم عن الخطأ، يستدعي بالضرورة النظر لمن يعارضونهم أو يخالفونهم أو لا يأتمرون بأمرهم، بإحدى النظرتين، إما الابتداع والمروق، وإما بالكفر، ولذلك فإن صاحب كتاب **أسس منهج السلف في الدعوة إلى الله،** وهو بتقريظ أربعة شيوخ منهم صالح الفوزان، وبعد أن ينقل عن ابن تيمية بأنهم الطائفة المتمسكة بالحق إلى قيام الساعة، وأنها لا تجتمع على ضلالة وأن السلفيين كانوا يسمون مخالفيهم بأهل الأهواء يقول: "وقد تضافرت أقوال أهل العلم في وصف تلك الطريقة النبوية باسم السلفية، ومن لم يكن متبعاً لها كان من أهل البدع والأهواء، وتنطبق عليهم هذه الصفة لما فيهم من اتباع الهوى، ومخالفة لنهج الكتاب والسنة."(16)

وفي الكتاب نفسه عن الألباني جازماً عن السلفيين: "هم وحدهم الذين يمثلون الفرقة الناجية من النار من الفرق الثلاث والسبعين التي سئل عنها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال هي في النار."(17)

فجزم الألباني بأنهم وحدهم الفرقة الناجية وغيرهم في النار لا يبتعد كثيراً عما قرره شكري أحمد مصطفى عبد العال مؤسس جماعة التكفير والهجرة، عندما سألته المحكمة عن ما إذا دعا إنساناً إلى فكره ومذهبه ولم يقبل هذا الإنسان أن يتبعه، هل يكفره؟ أجاب، "بل أحكم عليه بالكفر لهذا السبب وحده، بل لا يوجد لدينا سبب للكفر غيره، ....، هذا وقد جعلنا الله شهداء على الناس."(18)

وقد يسارع البعض إلى أنه ليس هناك تشابه بين مقولات ابن تيمية ومقولات الألباني من جهة ومقولات التكفيريين أمثال شكري مصطفى، باعتبار أن الشيخين لم يكفرا كل الفرق من غير السلفيين، كما أنه لم يثبت عنهما التكفير العيني لأشخاص بعينهم، ولكن الجواب على هذا يكمن في سؤال بديهي يستدعي جواباً بديهيا ومباشراً: وماذا يعني احتكار النجاة والجنة وقذف الآخرين المخالفين لمنهجه في النار، في ذهن القارئ العادي الذي يقرأ كلامه؟

وقد يعترض معترض بأن السلفيين يؤكدون دائماً على أهمية الانضواء تحت راية الجماعة، حيث هناك من يفضل تسمية أهل السنة والجماعة، وأنهم يحذرون الناس من الفرقة، فكيف يستقيم هذا مع الموقف الإلغائي لكل من خالف فهمهم ونهجهم من مذاهب المسلمين وعقائدهم؟

وقد تواتر لدى أعلام السلفية وشيوخهم أن الجماعة تسمية شرعية للذين يتبعون المنهج السلفي، ولا تعني أبداً الكثرة أو التسامح والتساهل مع الفرق الأخرى، والأمثلة عن هذا كثيرة في القديم والحديث، ونختار منها ما ذهب إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب حينما كتب في إحدى رسائله ناقلاً

عن ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين، ومتبينا لنفس الموقف إزاء هذا المفهوم: "وقد شذ الناس كلهم في زمن أحمد بن حنبل، إلا نفراً يسيراً، فكانوا هم الجماعة، وكان القضاة يومئذ والمفتون والخليفة وأتباعهم كلهم من الشاذين، وكان الإمامأحمد وحده هو الجماعة."(19)

هذا الاعتقاد الجازم بأن الجماعة لا تعني عموم المسلمين ولا تعني الكثرة العددية ولا تعني ما اتفقت عليه المذاهب الإسلامية الأخرى، بل إنها تعني أصحاب المنهج السلفي بالتحديد حتى وإن كان شخصاً واحداً فقط.

هذا الفهم لمصطلح الجماعة وتلك العقيدة الجازمة باحتواء العصمة بسبب المنهج السلفي سوف يؤديان إلى رفض كل مفاهيم القبول والتعايش مع الآخر المختلف، وإلى رفض كل الأفكار المخالفة، وهذا يؤدي بالضرورة إلى فشل كل محاولات الحوار والتفاهم مع أصحاب الفكر المخالف، لأن الخيار من وجهة النظر السلفية هو أحد اثنين، إما أن تكون مع الحق والفرقة الناجية المنصورة، وهم هنا يتكلمون عن أنفسهم، أو تكون مع من سوف يقذفون في النار، ماذا سوف تختار أنت؟

لقد كان من المقرر أن نبسط في هذه المداخلة بعض مرتكزات التفكير في المنهج السلفي، ونبسط في مقابلها تحفظات واستدراكات بل ومحاججات مفكرين كثيرين قديماً وحديثاً لهذا المنهج، ولكن وجدنا بأن الأمر تنقطع دونه الأنفاس، كما أن عرضه في العجالة المتاحة في الملتقى قد يكون مخلاً وقد يستتبع سوء فهم، وقد يخل بالمنهج المتبع في إعداد البحث والذي يحاول أن يكون موضوعياً خاضعاً لمحاور الملتقى التي تركز على الخطاب الديني .

وسنختم بتقديم أحد المرتكزات وهو ما عرف بتقديم النقل على العقل.

تقديم النقل (النص)على العقل:

فيما يتعلق بتقديم النص على العقل فإن المنهج السلفي يعتبر أن النص وهو ما يعبر عنه أحياناً بالشرع أو النقل، هو "الأسلم والأعلم والأحكم، لأنه لا يأتيه الباطل ولا يعتريه الضلال، فالمنقول عندهم مقدم على المعقول."(20) ، فهم يجعلون العقل تابع ومحكوم بالشرع، فالمنهج هنا هو تقديم الرواية على الدراية، حيث يبدؤون بالشرع ثم يخضعون له العقل، والسبب في تقديم ظاهر النص على دلالة العقل لديهم هو أن "الأوائل كانوا أكثر دراية وفهماً للشرع من غيرهم، فالمعقول ما وافق هديهم، والمجهول ما خالفهم، ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقهم إلا هذه الآثار."(21)

وقد ألفت كثير من الكتب ووضعت كثير من الردود والحجج تبين هذا الاختيار المنهجي وبخاصة في حالات تعارض النقل بالعقل، أشهرها كتاب ابن تيمية **درء تعارض النقل والعقل**، عقد في مقدمته فصلاً بعنوان القانون الكلي للتوفيق عند المبتدعة، شمل فيه الإمام فخر الدين الرازي، وأبي حامد الغزالي، وأبي بكر بن العربي، والقاضي الباقلاني، حيث ابتدأ ابن تيمية هذا الفصل بنقل كلام الرازي ورأيه فيما إذا تعارض العقل والنقل فيجب تقديم العقل، أما **النقل** فيجب تأويله أو أن يفوض علمه إلى الله، وحجة الإمام الرازي أن العقل أصل النقل، ..فكان تقديم النقل قدحاً في النقل والعقل جميعاً، وهنا يشبه ابن تيمية رأي الإمام الرازي ورأي من ذكرهم معه بما وضعته النصارى وأن النصارى أقرب إلى الأنبياء والرسل من هؤلاء، ويرى ابن تيمية أنه يكفيك من العقل أن يعلمك صدق الرسول ومعاني كلامه، وأن العقل متول، ولى الرسول ثم عزل نفسه.(22)

وخلاصة الأمر عند ابن تيمية أنه "إذا تعارض العقل مع الشرع، وجب تقديم الشرع على العقل، لأن العقل مصدق للشرع في كل ما أخبر به، والشرع لم يصدق العقل في كل ما أخبر به.(23)

وقد تطور الأمر عند السلفيين المعاصرين إلى مواقف رافضة من اكتشافات وبراهين العلم الحديث، على أساس مخالفتها لظاهر النص، فعلى سبيل المثال اتخذ المشائخ موقفاً عدائياً من استعمال وسائل الاتصال الحديثة في بدايات الدولة السعودية كاعتراضهم على تأسيس محطة البرق واللاسكي، بحجة أنها استعانة بالشياطين، وحاججهم الملك نفسه بأنها تنقل القرآن الكريم فلو كان بها شياطين لفرت منه، و"عندما أنشئت أول محطة لاسلكي في الرياض، أخذ بعض المشايخ يذهبون إلى المحطة ويسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشياطين، وهل الشيطان الكبير في مكة أو في الرياض، وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار، وكان بعض المشايخ يغرون العامل بالنقود ويتعهدون له بكتمان السر إذا أفشاه لهم."(24) وكذا اعتراضهم على تدريس الجغرافيا والرسم واللغات، ويطيب لي أن أنقل مقالة للملك عبد العزيز ابن سعود من كتاب علي الوردي **قصة الأشراف وابن سعود، "**

إخواني المشايخ، أنتم الآن فوق رأسي، تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو أكثركم، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي ثانية، مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي، وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم يمنع من إحداث اللاسلكي والسيارات. "(25)

ومما يذكر كذلك الموقف العدائي من مسألة دوران الأرض حول الشمس، على أساس أن ظاهر النص في القرآن الكريم يضيف الفعل في حركة إلى الشمس وليس إلى الأرض، وأن الأرض بحسب ابن عثيمين ثابتة قد أرساها الله بالجبال وجعلها أوتاداً لها، وليس هناك مسوغ شرعي لترك ظاهر النص القرآني لصالح البرهان الرياضي أو الاكتشاف العلمي، وكل من قال خلاف هذا القول فقد قال كفراً وضلالاً. (26)وقد أفتى بذلك ابن باز في كتابه **الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس وسكون الأرض**، ورمى من يذهب إلى هذا الرأي بالكفر والضلال لأنه يخالف ظاهر النص القرآني بحسب ما يرى.

إن العنصر الأخير من المداخلة ما هو إلا مثال عن المرتكزات الفكرية للمنهج السلفي، وقد يتشعب الحديث فيه إلى شجون كثيرة ومتداخلة، من ذلك كيفية تعامل السلفية مع النصوص وكيفية تأويلها وفهمها، وهذا مدخل كبير ربما يضيء سبب اختلافهم مع باقي الفرق والمذاهب، وقد يتسرب إلى صميم أصل الدين ألا وهو العقيدة وصفات الله تعالى وأسماؤه، مما ليس في وسعنا أن نبسطه في هذه العجالة.

الهوامش والإحالات:

1- أصول الأصوليات والتعصبات السلفية، روجيه غارودي، مكتبة الشروق، القاهرة، 1996، ص09.

2- ينظر: السلفية المحافظة، استراتيجية أسلمة المجتمع وسؤال العلاقة الملتبسة مع الدولة، محمد أبو رمان وحسن أبو هنية، مؤسسة فريديريش أيبرت، عمان، 2010، ص 17ـ27.

3- ينظر: تيارات الفكر الإسلامي، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص 128 ـــ161.
4- ينظر: الحركات الإسلامية في لبنان، عبد الغني عماد، دار الطليعة، بيروت، 2006، ص265 ـــ 268.
5- ينظر: تيارات الفكر الإسلامي، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص101.
6- النزعات الظاهرية في الفكر الإسلامي الحديث، عبد العزيز بوريقي، دار طوبقال، الدار البيضاء، ط2، 2001، ص155.
7- الفكر السياسي لحمد رشيد رضا، محمد أبو رمان، مكتبة الأسرة الأردنية، عمان، 2010، ص 09 ـــ 13.
8- ينظر: تيارات الفكر الإسلامي، محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1997، ص121.
9- إعتقاد أئمة أهل الحديث، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار إيلاف للنشر، الكويت، ط1، 1999، ص5.
10- ينظر: تقريض عبيد الجابري على كتاب أسس منهج السلف، فواز السحيمي، دار ابن القيم، الدمام2003، ص26 ـــــ37.
11- مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997، الجزء 10، ص62.
12- أسس المنهج السلفي، فواز السحيمي، دار ابن القيم، الدمام، 2003، ص25.
13- المرجع نفسه، ص37.
14- مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1997، الجزء 10، ص11 ـــــ17.

15- المنهج السلفي عند الشيخ الألباني، عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة الضياء، طنطا، ص138_139.

16- أسس المنهج السلفي في الدعوة إلى الله، فواز سحيم، ص28.

17- المصدر نفسه، ص29.

18- النبي المسلح، رفعت السيد أحمد، المجلد1، الرافضون، دار رياض الريس، ط1، لندن، 1991، ص102.

19- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، مجموعة رسائل للشيخ محمد بن عبد الوهاب، جمع عبد الرحمن النجدي، بدون اسم دار النشر، ط6، 1996، المجلد 10، ص44 ـ 45.

20- العقيدة السلفية بين الإمام ابن حنبل وابن تيمية، سيد عبد العزيز السيلي، دار المنار، القاهرة، ط1، 1993، ص105.

21- المصدر نفسه، ص103.

22- ينظر: درء تعارض النقل مع العقل، ابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، المجلد1، ص 7، 8، 80.

23- المصدر نفسه، المجلد1، ص79.

24- قصة الأشراف وابن سعود، علي الوردي، شركة الوراق، بغداد، ط3، 2013، ص344.

25- المصدر نفسه، ص346.

26- يمكن ببساطة البحث عن تسجيلات شيوخ السلفية في المسألة، كأن يكتب في محرك البحث يوتيوب، دوران الأرض العثيمين، أو دوران الأرض ابن باز، دوران الأرض آل الشيخ، دوران الأرض الفوزان، ..... مع الإشارة إلى أن هناك تسجيل للألباني لا ينكر دوران الأرض على خلاف ما ذهب إليه علماء السعودية، كما يرى بعدم وجود أي نص قرآني يخالف الأدلة الكونية المحققة بالبرهان والملاحظة العلمية.